المصطلحات الطبية*

ونهضة العربية بصوغها فى القرن الحاضر

للأستاذ الدكتور أحمد عمار بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

اللغات كائنات حية نامية متجددة — ما تجددت عاشت ، فإن جمدت ماتت . ولقد تعتورها من آفات الإفراط والتفريط

* نص المحاضرة القيمة التى ألقاها الدكتور فى حفلة افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول

الماجنة قد نقلتنى من عالم الخيال الجميل إلى عالم الواقع الذميم ، حين أرسلت ضحكاتها الصاخبة عبر الفضاء لتحيى بها أنين الضحايا على ضفاف القنال !

إن الدم ليفور فى عروقى وأنا أبحث عن الرجل الذى يملك سوط الجلاد فلا أجده ؛ الرجل الذى يلهب ظهور اللاهين فى ساعة الجد ، واللاعبين فى وقت الشدة ، والهازلين ورحى المعركة تدور . . أين هذا الرجل ليرد أصحاب الغفلة إلى الوعى ، وأين سوطه ليعلم أصحاب الجون معنى الوقار ؟! ما أشد حاجتنا إلى هذا الرجل ما دام الذوق قد تحجر ، وما دام الحس قد تبلد ، وما دام الضمير قد مات !!

لو وجد هذا الرجل لما امتلأت القهوات بالفارغين ، ولما ازدحمت الشوارع بالمتسكعين ، ولما ضاقت الأندية على سعتها بالرقعاء من لاعبى القمار . . لو وجد هذا الرجل لساق هؤلاء جميعا إلى هناك ، إلى تلك البقعة المجاهدة ليتلقوا فى رحابها الدروس ؛ دروس العزة والبذل والتضحية وإنكار الذات ! لو وجد هذا الرجل لساقهم سوق العبيد ليفهموا معنى الحرية ، ولأخذهم أخذ الأذلاء ليدركوا شرف الكرامة ، ولأيقظهم بصوت القوى القاهر من هذا السبات العميق !!

إنهم فى هذه المحنة القاسية وفى هذه اللحظة الحاسمة ، محتاجون حقا إلى من يفهمهم بأن زمن اللهو قد انقضى وبأن وقت الهزل قد فات ، ولن يفهمهم على التحقيق غير شئ واحد هو سوط الجلاد . . وما أشد افتقارنا إليه فى مثل هذه الأيام !!

أنور العداوى

أدواء لا منجاة لها منها إلا أن تكون بين ذلك قواما ، وتلزم بينهما قصد السبيل

وإن لكل لغة أوضاعا مأثورة ، ومطالب يقتضيها منها العصر — وعلى قدر توفيقها فى المزاوجة بين الحفاظ على تراثها ، ومسايرة زمانها يكون حظها من قوة الحياة . فإن هى اشتطت فى المحافظة إلى حد الجمود ، أو نبذت قديمها تهافتا على الجديد ، دب إليها دبيب الوهن ، وتناوشتها عوامل الفناء

وللغة العربية ميزة فذة على سائر اللغات — إذ نزلت بها آيات الهدى والفرقان ، وإذ شرفها الله تعالى بمحكم قوله : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » وبصادق وعده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

ولغة هذا شأن تراثها — بل شأوه من التقديس — لا عجب إذا هى انقادت بيديهتها ، فغلت فى المحافظة حذر التجديد . ولكنها إن أعملت رويتها ، أدركت أنها إن تغل فى الحذر — فمن مأمنه قد يؤتى الحذر ، وأنها إن تجمد على القديم ، تفد على الأيام لغة قصاراها الدين ، بعد إذ كانت فى عنفوانها لغة الدنيا والدين ، وتتنكر بذلك لتراثها ذاته ، بل لسنة الحياة لا تبديل لها ، وهى أن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض . فتلك سنة لا تند عنها اللغات ؛ فهى إنما تمكث فى الأرض بما توفره من منافع للناس فى شتى ضروب تواصلهم فى أمور معاشهم . وإنا لتعاصرنا لغات موفورة الحياة ، لا تكف عن التجدد ليل نهار ، لتلاحق فيوض القرائح وأفانين الابتكار ، فلا يلحقها من هذا التجدد ضير ، بل لا يزيدها التجدد إلا قوة ونماء

ولقد وسعت اللغة فى ريعانها من مطالب الحضارة أعلاها مرتقى ، وأصعبها شمايا ، ومن بينها الطب ، إذ بلغ شأوها فيه أن تلقاه عليها الغرب ، وتدارسه فى كنبها حقبا طوالا . وما كان ذلك إلا لأن أسلافنا لم يبتلوا بذلك الداء الدوى ، وهو فرط الحذر ، ولم يخشوا فى النقل عمن سبقهم من الأمم لومة لائم ، بل أقبلوا عليه إقبالا لعلهم كانوا فيه إلى العجلة والاندفاع أقرب منهم إلى التؤدة والأناة ، فما أضر بهم ولا بلغتهم قليل الاندفاع ، ولو أنهم أسرفوا فى الحذر — لما خلد لهم فى التاريخ ذكر ولا

بقى لهم فى العلم أثر

ثم دارت الأيام بهذا المجد العربى المؤثل ، فدالت دولته ، وطال بالأمة تخلفها عن قافلة الزمان ، حتى كان مبزغ النهضة المصرية الحديثة التى تصدرها المجدد العظيم محمد على ، فأخذت اللغة تصحو من سباتها الطويل . وكان من بواكير هذا الصحو أن تعاون القائمون بالتعليم الطبى حينذاك على نقل المصطلحات الطبية إلى اللغة العربية ، وأثمر هذا التعاون معجم التونسى المسمى « الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية » — ذلك المعجم الذى ألقت به عصا التسيار إلى متحف باريس ، ثم نقلت عنه صورتان شمسيتان إلى دار الكتب المصرية . وهذا المعجم يشتمل على مفردات عربية مشروحة لا تقابلها مرادفاتها الأجنبية ، ويقع فى اثنى عشر جزءا ، لم يقدر لها أن تنشر ، فيما عدا مائة صفحة منها عنى المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك بنشر مفرداتها مترجمة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية . ومن أسف أن هذا الجهد الذى كان خليقا بالنفع لم يمض إلى غايته . وحبذا لو عنى مجمعنا الموقر بتزويد مكتبته بصورة من ذلك المعجم الحبيس ، انتفاعا بكثرة ما حوى من مفردات صالحة للاقتباس الطبى ، مستخرجة من معاجم عدة

على أن هذه النهضة العربية فى القرن الماضى ، ما لبثت أن منيت بمثل ما منيت به النهضة السياسية من عثار لم يكن منه مقيل حتى مطلع العشرين ، حين قيض الله للمصطلحات الطبية العربية طبيبا كبيرا : هو المرحوم الدكتور محمد شرف بك ، ملك عليه حب العربية مشاعره ، فبذل لها من فكره وجهده ، ومن ماله ووقته ، ما تنوء به العصبة أولو القوة ؛ غير مشفق من أن يحمل وحده أمانة تؤود رهطا من الأنبات إذ أخرج للناس معجمه الضخم الذى ينتظم سبعين ألفا من المصطلحات ، لا فى الطب بمختلف فروعه فحسب ، بل فى كل ما يمت له بصلة من سائر العلوم . وبحسب هذا المعجم أن يكون الأول من نوعه فى العربية ، وأن يقوم شاهدا على ما تستطيعه الهمة الشماء إذا ما تجشمت جلائل الأمور

ثم أذن الله للغة العربية أن تسترد مجدها التليد بإنشاء هذا المجمع الموقر الذى يضم صفوة من أئمة اللغة وفقهائها ، وجهابذة علمائها ، الخبراء بمختلف حاجاتها ، البصراء بما يجدد شبابها ويعيدها سيرتها الأولى قوية فتية موفورة . فحقق بما استن من قواعد ، وبما وثق من ألفاظ ، بشرى أهل العربية به ، على أتم وجه وأوفاه — لولا ما اعتاقه من قصور وسائله فى إعلان عمله للناس ، وافتقاره لطائفة من أمهات المراجع ، واحتياجه لمزيد من العاملين فى مختلف اللجان — ولولا شئ آخر ، أرى واجبا على وقد شرفنى المجمع بعضويته ، أن أهمس إليه به ، وهو حيرته التى طالت سبعة عشر عاما ، بين إشفاق على القديم ، ووجل من الجديد فما عدة النهضات إلا الإقدام

ولئن شئنا أن نشفق فلنشفق من الجمود والاندفاع على السواء . أو فلنشفق من الجمود أكثر مما نشفق من الاندفاع ، ولنتوسط بينهما السداد ما استطعنا إليه سبيلا . فلقد جاء فى الأثر الشريف « خير هذه الأمة النمط الأوسط : يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى » ، وإنا لهذا النمط الأوسط لمتبعون . ولنضرب لذلك الأمثال :

من قواعد صوغ المصطلحات العلمية عامة ، والطبية خاصة ، أن يحبس المصطلح على معنى بذاته منعا من التباسه بأى معنى سواه . ولقد لجأت اللغات الأجنبية إلى اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية فاستمدت منهما أكثر مصطلحات العلوم متوسلة إلى ذلك بأية مناسبة ، وإن كانت واهية ، من مناسبات المعنى المراد

فالمرض الجلدى المعروف بالإكزيما مثلا — من علامات دور من أدواره ظهور نقطات أو حويصلات مليئة بما يشبه الماء على ظاهر الجلد . فمن المشابهة البعيدة بين هذه النقطات وما يظهر من فقاعات على سطح الماء عند غليانه : استمدت لتسمية المرض كلمة « إكزيما » وهى كلمة لاتينية تفيد معنى الغليان ، وحبست على المرض فأصبحت علما عليه لا تنصرف إلى شئ سواه

فما عسى أن نترجم به هذا المصطلح إلى العربية ؟ إن أول ما ينبغى أن نتوخاه هو أن يكون لفظنا مفردا كنظيره الأجنبى . ذلك لأن من ضرورات استعماله أن نسوقه فى صيغة صفة أو مصدر أو إضافة أو نسبة — فى نحو قولنا : جلد متأكزم ، أو اكزيما الوجه ، أو التغيرات الاكزيمية

فها نحن أولاء قد استخدمنا المصطلح الأجنبي على جهة التعريب فأولى بالغاية . أنوثق هذا التعريب من فورنا غير متحرجين ، أم نتمهل لعلنا نظفر ببغيتنا من سبيل الاشتقاق ؟ لقد سبق أن ترجم هذا المصطلح اشتقاقا « بالغليان » على المقابلة بأصل المعنى اللاتيني . فهل تفي هذه الكلمة بالمراد ؟ أإذا قلنا « الغليان » أمكن أن ينصرف المعنى في ذهن السامع إلى ذلك المرض الجلدي ؟ وإن قلنا « داء الغليان » — فضلا عن أننا تجاوزنا عن مقابلة اللفظ المفرد بمفرد مثله مما هو مستحب — فقد أوجبنا التساؤل : أداء اجتماعي هو أم فردي ؟ أو نفساني هو أم جثماني ؟ وأي الأعضاء يصيب ؟ فإن قلنا « غليان الجلد » فقد أوقعنا القول في الذهن موقع حيرة وغرابة : إذ كيف يغلي الجلد ؟ وأي جلد ذاك الذي يغلي ؟

وإنما الذي أوجب كل هذه الحيرة : هو أننا استخدمنا لفظا شائعا لمعنى علمي ، فلا نحن تركناه لمعناه الشائع ، ولا نحن استطعنا أن نحبسه على المعنى العلمي المراد بعد أن انتزعناه من استعماله العام . ومن ثم فقد سلبنا اللغة لفظا من رصيدها المتداول دون أن ننتفع به فتيلا . وهذا ما تفاداه الاصطلاح الأجنبي باستمداد الكلمة من لغة دارسة ، مما لا سبيل لنا إليه إلا أن نستمد من لفظ عربي مهجور

فإذا لم نوفق إلى مقابل لكلمة « إكزيما » عن طريق الاشتقاق على النحو الذي أوضحناه ، فلم لا نلبي من فورنا حاجة الاستعمال العاجلة باللجوء إلى التعريب ، بأن نعهد في غير تردد بكلمة « الاكزيما » لذوي الملكات المطبوعة من رجال اللغة ، ليوثقوها كما هي أو ليصقلوها بما يتسق مع الذوق العربي ، كأن يقولوا « الأقزيم » أو « الأكزيم » حسبما يرون ، في غير إغراب أو ابتعاد بالنطق عن اللفظ الأجنبي

وهبنا بعد إذ وثقنا الكلمة بالتعريب ، جاءنا من يقول إنه وجد في مادة « كزم » كلمة « التكزيم » بمعنى التقفيع ، وفي مادة « قفع » كلمة « القفعاء » بمعنى الأذن التي كأنها أصابتها نار فتزوت من أعلاها إلى أسفلها ، ثم كلمة « القفاعي » بمعنى الأحمر ينقشر أنفه لشدة حمرته ، وأحمر قفاعي لغة في قفاعي مقدمة الفاء ، وهو قفاع لماله : لا ينفقه

وذكر القائل بعد ذلك أنه زعم بأن القفاعة إنما سميت لذلك لأنها تحتجن ماءها كما يحتجن القفاع ماله فلا ينفقه ، وأن ماتشبه القفاعات في الإكزيما إن هو إلا دور من أدوارها يسبقه دور احمرار لك أن تصف حمرته بالأحمر القفاعي ، وأن الانقشار دور من أدوار الإكزيما كذلك ، وأن الأذن التي أصابتها نار فتزوت من أعلاها إلى أسفلها لتوحي بالأذن التي أصابتها الأكزيما بالتهاب كالذعة النار وتورم تتزوى منه أي تموج . وخلص القائل من تفسيره هذا الذي أدهشنا أشد الدهش إلى أن من حق لغتنا علينا ألا نستعير لها الألفاظ ، وإنما لتحويها .

فهل من ضير يضيرنا إذا نحن عدنا إلى الاشتقاق بعد التعريب ؟ ولماذا لا نترخص في الاشتقاق من مناداة « كزم » هذه ، فنقول « كزيمة » مثلا لاسم المرض ، « ونكزم » للفعل ، « ومكزما » للصفة ، و « تكزيما » للمصدر » . ولم لا يحق لنا أن نكمل تصريفها قياسا على مادة تشبهها ، لغير قيود لا موجب لها في لفظ مهجور رآه مدونو المعاجم أنفسهم غير جدير باستيفاء التعريب .

وأيهما أحفظ لتراث اللغة : أأن ندخل عليها لفظا أعجميا مهما صقلناه بدا في لغتنا كالرقعة المختلفة عن نسيج الثوب — أم أن نرقع ثوبنا من نسيجه نفسه فتتسق رقعتنا مع الثوب ؟

وما بالنا إذا ما نأبت علينا قواعد الاشتقاق لا تقبل الكلمة المقترحة على أي جهة من جهات القبول ؟ بل ما بالنا إذا ما اختلفنا في المفاضلة بين إكزيما وكزيمة ، لا نوثق الكلمتين معا ، تاركين للذوق العام أن يستقر على تخير إحداهما بمقتضى مزاياها في الاستعمال . وهاهنا تتضح أمامنا معالم الطريق ؛ فإن أول ما يجب أن نتجه إليه في صوغ المصطلح العلمي ، هو البحث عما إذا كان لمعناه في لغتنا لفظ يقابله ويؤدي معناه في غير لبس ولا ثقل ؛ فإن وجدناه فذاك ، وإلا بحثنا في مهجور الالفاظ عن لفظ يمت معناه للمعنى المراد بصلة دالة مميزة ، فإن استيسرت لنا بضعة ألفاظ تمت للمعنى بمختلف الصلات ، كان أولاها بالاختيار أقربها معنى وأنسبها لفظا للمصطلح الأجنبي . وليس حتما أن يكون اللفظ خفيفا وجيزا إن كان مقابله الاجنبي ثقيلا طويلا . على أنه من التوفيق أن يخف اللفظ ويقصر ، ومن غاية التوفيق

أن تكون بينه وبين مقابله مناسبة شبه فى نطق ، أو وزن ، أو مخرج ، أو حرف غالب ، مما يريده مواءمة الأصل ، وسهولة فى الحفظ ، وطلاوة فى الاستعمال — ومن ثم جدارة بالتداول .

والآن فلندع مثلنا الأول — وهو الا كزيا — بعد إذ أفضنا فيه توضيحا لبداية الطريق ، ولنضرب مزيدا من الأمثال الموجزة الاشتقاق ، فالتعريب ، فالنحت — توضيحا لسائر الطريق .

فكلمة « الأوذيما » التى عربها الرئيس ابن سينا لمقابلة الكلمة الأجنبية التى تنطق « إديما » — والتى تعنى ارتشاح الماء تحت الجلد لم لم يعربها « إديما » كما هى بدلا من « أوذيما » التى لا تطابق فى نطقها الذوق العربى ؟ .

وماالذى يفيدنا بتعريب الأولين إن لم نجد مايوجبه؟ بل لماذا لا نشتق لهذا المعنى كلمة مثل « دئيمة » من مادة « دأم » — وقد تضمنت : تدأم الماء الشيء : غمره ، بل لماذا لا نقلب هذه الكلمة فنقول « إديمة » والقلب جائز فى الاشتقاق ؟ لعل ابن سينا نفسه ، لولا تعجله بالتعريب ، ملاحقة للعلم ، لوجد فى مثلنا هذا مندوحة عن التعريب بالاشتقاق !

ومما يؤخذ على بعض الأقدمين فى تعريبهم — ولعلهم بالأغراب الشديدفيما عربوادون ماحكمة فيه . فكلمة Taraxacum مثلا ، وهو نبات يشبه نبات الهندبا ، التى يمكن أن تعرب بكلمة « طرقساق » قد عربها الاقدمون — ومن بينهم ابن سينا وابن البيطار وداود الأنطاكى والطبرى — بما ينيف على الثلاثين تعريبا ، تشترك جميعا بل تتبارى فى الثقل والأغراب على تفاوت ذلك مابين « طرخشقون » و « تلخشكوك » و « تاحسكوك » و « طليخم » و « تلخ » !

لقد أسرف قدماؤنا فى التعريب حتى كادوا يجهلون ما هو أحفظ منه للغة وأدل منه على محاسنها وهو الاشتقاق ، فعربوا — مغربين فى التعريب — حيث كان يسهل بل يجزل الاشتقاق . فعلم الحساب مثلا عربوه : « أرثماطيقا » ، والتحليل : « أنا لوطيقا » وما وراء الطبيعة : « ميتا فيزيقا » .

ولعل مرد إسرافهم هذا فى التعريب إلى ثلاثة أمور : أولها جهلهم بما لأصول المصطلحات من المعانى فى قديم اللغات التى ما كانوا ليعدوا بدراستها . وثانيها مراعاتهم مقتضى الدقة العلمية بحبس المصطلح العلمى على معناه الخصيص لكى يحتفظوا بالصلة العلمية بين لغتهم وسائر اللغات . وثالثها إيثارهم سهولة التعريب وسرعته على صعوبة الاشتقاق وبطئه ، تلهفاً منهم على ملاحقة عصرهم فيما نقلوه إلى لغتهم من مختلف العلوم .

ووجه العجب فى الأمر أن يكون هذا منزع قدمائنا إلى التجديد ، بينما نقف نحن حيارى نتردد ما بين المحافظة والتجديد فيلاحقوا هم عصرهم البطىء والثابت ، ونخلد نحن فى عصرنا الوثاب إلى الهوينى !

فلقد ترجمنا الفزيولوجيا مثلا بالوظائف ، وسمينا المشتغل بها « الوظائفى » . فأية وظائف هى ؟ أهى وظائف الحكومة وغيرها بالمعنى المتعارف الآن ، أم هى المرتبات على المعنى اللغوى الصحيح ؟ أإذا أردنا أن نعد ميزانية لقسم الفزيولوجيا بكلية الطب مثلا قلنا : الوظائف لقسم الوظائف تنقسم إلى وظائف وظائفيين ، ووظائف موظفين غير وظائفيين ؟ ولنقس على هذه الأمثلة ماشئنا فى سائر العلوم .

أية مفارقة هذه بين موقفنا وموقف الغابرين : إذ نتأبى نحن على التعريب حيثما يكاد يستوجب ، بينما ترخصوا هم فيه حيث لهم معدوحة عنه . ولماذا لانعرب غير هيا بين حيثما يستعصى علينا ، أو ربما ينقاد لنا ، الاشتقاق ؟ وأية غضاضة فى أن نعرب الفزيولوجيا وما جرى مجراها بأسمائها كاملة أو محورة أو موجزة ، كأن نقول « فزلجة » للفزيولوجى ، و « بثلجة » للباثولوجى ، كما قلنا فلسفة وجغرافيا وغيرهما ؟ أليست هذه التسمية أحبس فى الدلالة على المعنى المراد من أية تسمية أخرى يمكن أن نهتدى اليها اشتقاقا ؟

ولقد أقر المجمع الموقر لكل نوع من أنواع الآلات صيغة من صيغها الثلاث ، تقصر عليه ليتميز بها من النوعين الآخرين ، فلم لا نقتاس بذلك فى صيغ الأمراض : وهى فعال وفعيل وفعل نل لم لانضيف اليها بالاستعارة غيرها من الصيغ كفعلان ، فنقابل بكل من هذه الصيغ ما يناسبها من صيغ الأمراض فى الأجنبية ، مثل « Ilis » و « Osis » و « Rrhea » و « Algia » وسائر ما جرى مجراها ؟ ولم لا نتوخى طريقة منظمة فى صوغ المصطلحات ، بأن نبدأ أولا بترجمة أدوات التصدير والألحاق